

رَهْبَةُ الْمَوْتِ وَسُؤَالُ الْمَعْنَى

رئيس التحرير

د. محمد محمود مرتضى

منذ فجر الوعي، كان الموت هو اللغز الذي يطارد الإنسان بلا هوادة. فليس هو مجرد انقطاع نبض القلب، ولا حدثاً عرضياً في دورة الطبيعة، بل هو الحد الذي تنكسر عنده كل يقينياته، واللحظة التي تتوقف فيها التجربة، ويخبو فيها الحضور، تاركاً خلفه أسئلة لم تجد إجابة نهائية. لماذا نموت؟ هل الموت نهاية أم عبور؟ هل هناك ما وراء هذا العدم الذي لا يبوح بأسراره؟ على مرّ العصور، لم يكن الموت مجرد تجربة فردية، بل كان حجر الأساس في تشكيل الحضارات والأديان والفلسفات. من أهرامات الفراعنة إلى طقوس الشعوب البدائية، ومن تأملات الفلاسفة إلى نصوص الكتب المقدسة، ظلّ الإنسان يُحاول التفاوض مع الغناء، ويضع له تأويلاً، أو يمنحه معنى، أو يحاول، على الأقلّ، تأجيل لحظة المواجهة. لكن السؤال بقي معلقاً، يراوغ العقل، يفتح أبواب الخوف، ويُعيد تشكيل فهم الإنسان لحياته ذاتها. لم يعد الموت في الفكر الغربي الحديث، مجرد لغز ينتظر تفسيراً، بل أصبح معضلة وجودية قائمة بذاتها. ومع انحسار الإيمان الديني في الفلسفات الحديثة، وغياب التصورات التقليدية للحياة الأخرى، صار الموت أشدّ وطأة، وأكثر حضوراً في وعي الإنسان المعاصر. أصبح الموت في الفلسفة الغربية الحديثة نقطة نهاية؛ حيث ينتهي كلُّ شيء بلا رجعة. لم يحرر هذا التحول الإنسان من الخوف، بل زاد من قلقه. فإذا كانت الحياة بلا امتداد، وإذا كان الموت هو المحطة الأخيرة، فماذا يبقى من المعنى؟ هل يستحقُّ أيُّ شيء أن يُعاش إذا كان الموت يتلعه في النهاية؟

الموتُ في الفكر الفلسفيّ: بين العدم والبحث عن المعنى

منذ بدايات الفكر الفلسفي، كان الموت موضوعاً محورياً في تأملات الإنسان حول وجوده. كان البوّابة التي تطرح أعظم الأسئلة: هل للحياة غاية إذا كان الموت ينتظر في النهاية؟ هل الفناء هو المصير الوحيد، أم أنّ هناك امتداداً لما بعده؟

تنوّعت الإجابات بين الفلاسفة القدماء والمحدثين، لكن القلق ظلّ واحداً، يتجدّد مع كلّ محاولة لفهم المصير.

في الفلسفات الشرقية القديمة، مثل البوذية والهندوسية، شكّل الموتُ دورة متكرّرة من الحياة والموت؛ حيث يظلُّ الإنسانُ عالماً في إعادة الولادة حتى يصلَ إلى حالة التحرر النهائيّ (النيرفانا-Nirvana).

وعند الإغريق، كان الموتُ مرتبطاً بأسئلة العدالة والخلود. رأى (أفلاطون- Plato) في الموت تحرراً للروح من سجن الجسد؛ حيث تنتقل إلى عالم المثُل؛ حيث الحقيقة المطلقة والوجود الأكمل. أما (أرسطو- Aristotle)، فتعامل مع الموت بوصفه حدثاً طبيعياً، لكنّه لم يقدم تصوّراً واضحاً لما بعده، بل انشغل في كيفية تحقيق الحياة الفاضلة قبل الموت.

لكن مع العصور الحديثة، انقلبت الرؤية رأساً على عقب. حين أعلن (نيتشه- Nietzsche) "موت الإله"، لم يكن يقصد موتَ الدين فقط، بل انهيار التصوّرات التقليدية التي كانت تمنح للحياة معنى يتجاوز الموت. فإذا لم يكن هناك عالم آخر، فإنّ الموت يصبح الفراغ المطلق، والنهاية التي لا رجوعَ منها.

ومن هنا، جاء (مارتن هايدغر- Martin Heidegger) ليؤسّس فلسفةً جديدةً للموت؛ حيث اعتبره "الحقيقة الأكثر أصالة" في الوجود الإنساني. فالإنسان، عنده، "كائن نحو الموت"، أي أنّ وعيه بالموت هو الذي يحدّد جوهر حياته، فهو يعيش حياته على ضوء نهايتها الحتمية. لكن هذه الرؤية، جعلت الموت مجرد خلفية تحدّد كيفية عيش الحياة.

مع (جان بول سارتر- Jean-Paul Sartre) و(ألبير كامو- Albert Camus)، وصل القلقُ الوجوديُّ إلى ذروته. عند (سارتر)، الموت هو الحدّ الذي يحرم الإنسان من تحقيق ذاته بالكامل، مما يجعله عبثياً. لا توجد غاية تتجاوز الموت، ولا معنى ينبو من الفناء. أما (كامو)، فقد رأى في الموت الدليل الأقصى على عبثية الحياة؛ حيث تصبح كل المحاولات لإضفاء المعنى على

الوجود مجرد وهم. إذا كان الموت لا معنى له، فإن الحياة أيضاً بلا معنى، مما يطرح السؤال الفلسفي الأكثر رعباً: لماذا لا يكون الانتحار هو الحل المنطقي لهذه العبثية؟ هكذا، بدلاً من أن تقدم الفلسفة الحديثة إجابة عن الموت، جعلت منه أزمة بلا مخرج. ومع انهيار السرديات الدينية الكبرى في المجتمعات الغربية، أصبح الإنسان أكثر وحدة أمام مصيره. فإذا كان الموت هو النهاية المطلقة، فإن كل القيم التي عاش من أجلها، وكل لحظات الحب، والألم، والانتصار، تُصبح بلا وزن؛ لأن النسيان سيمحوها كلها في النهاية. وهكذا، تحول الموت من كونه معبراً إلى عالم آخر إلى كونه الهاوية التي يُبتلع فيها كل شيء. لكن، هل هذا هو السبيل الوحيد لفهم الموت؟ أم أن هناك تصورات أخرى تقدم رؤية تتجاوز هذه العدمية؟ وهل قدمت الأديان مجرد تفسيرات واهية للموت، أم أنها قدمت إجابات أكثر اتساقاً مع عمق الأسئلة التي يطرحها الإنسان؟

الموت في العلم: هل يمكن الهروب من الفناء؟

بينما ظلت الفلسفة غارقة في قلقها الوجودي، اتجه العلم إلى التعامل مع الموت بوصفه ظاهرة طبيعية يمكن تحليلها وربما التغلب عليها. فإذا كان الموت في الفكر الفلسفي معضلة لا حل لها، فقد رأى العلماء أنه مجرد عطل في النظام الحيوي للكائنات، يمكن فهمه، وربما حتى تأجيله أو تجاوزه. لكن هل نجح العلم في تقديم إجابة حقيقية عن الموت؟ أم أنه، على الرغم من تقدمه، لم يفعل سوى تأجيل المواجهة؟

عند النظر إلى الموت من زاوية علم الأحياء، نجد أنه جزء أساس من دورة الحياة؛ حيث تموت الخلايا بشكل منظم في كل لحظة، فيما يُعرف بـ «الاستماتة الخلوية» (Apoptosis)، وهو ما يسمح للكائنات الحية بالتجدد والتكيف مع بيئتها. لكن على المستوى الكلي، تظل الشيخوخة والتآكل الطبيعي ساريين.

ومع ذلك، لم يتوقف العلماء عند هذا الحد. فمنذ القرن العشرين الميلادي، بدأت الأبحاث في محاولة فهم آليات الشيخوخة والموت، بهدف إطالة عمر الإنسان؛ حيث اكتشفت جينات معينة تتحكم في طول العمر، مثل جينات السيروتونين (Serotonin) -التي تلعب دوراً في مقاومة الشيخوخة. كما تم تطوير عمليات مثل تعديل الحمض النووي (CRISPR) التي تفتح الباب

أمام إمكانية التلاعب بالعوامل الوراثية التي تؤدي إلى الموت الطبيعي. وفي السنوات الأخيرة، ظهرت موجة من الأبحاث التي لا تهدف فقط إلى تأجيل الموت، بل إلى تجاوزه بالكامل؛ إذ تعمل شركات مثل (Kalevik) و (SINGULARITY) على تطوير أساليب لإطالة العمر إلى ما لا نهاية، من خلال إعادة تنظيم الخلايا أو حتى تحميل الوعي البشري على منصات رقمية، فيما يُعرف بـ «ما بعد الإنسانية» (Transhumanism) يعتقد بعض العلماء، مثل (راي كورزويل - Raymond Kurzweil)، أن البشر سيصلون إلى نقطة يصبح فيها الدماغ البشري قادراً على الاندماج مع الذكاء الاصطناعي، مما يسمح بنقل الوعي إلى بيئة إلكترونية لا تخضع لقوانين علم الأحياء.

لكن هل يمكن حقاً الهروب من الموت؟ رغم كل التقدم العلمي، تظل هناك عقبات ضخمة. حتى لو تمكنا من تأجيل الشيخوخة أو حتى تحميل الوعي على حواسيب، يظل السؤال الفلسفي قائماً: هل الإنسان الذي يتم تحميل وعيه هو الشخص ذاته، أم مجرد نسخة رقمية؟ وهل تأجيل الموت إلى أجل غير مسمى يعني حقاً التغلب عليه، أم أنه مجرد إنكار للحتمية التي تحكم كل شيء في الكون؟

حتى مع كل هذا التطور، لم يستطع العلم حلّ معضلة الموت بشكل نهائي. نعم، يمكننا إطالة العمر، أو تأخير الشيخوخة، أو تحسين جودة الحياة، لكننا لم نستطع - ولن نستطيع أبداً - تجاوز اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء؛ لأنّ الموت هو جزء من طبيعة الوجود نفسه. لكن يبقى السؤال الأهم: هل الموت هو المشكلة، أم أن خوف الإنسان منه هو ما يجعل منه معضلة؟ وهل البحث عن الخلود هو الحلّ، أم أن المعنى الحقيقي للحياة لا يُفهم إلا في ظلّ الموت؟

هنا، يظهر الفارق بين النظرة العلمية والنظرة الدينية للموت؛ حيث لا يصبح السؤال هو "كيف نهرب من الموت؟" بل "كيف نفهمه؟"

الموت بوصفه باباً للعدالة المطلقة

بينما واجهت الفلسفة الموت باعتباره أزمة وجودية، وتعامل معه العلم بوصفه ظاهرة بيولوجية قابلة للدراسة، قدّمت الأديان تصوراً مختلفاً تماماً؛ حيث كان الموت نقطة انتقال إلى حياة

أخرى. لم تسع الأديانُ إلى إنكار الموت أو التحايل عليه، بل سعت إلى منحه معنى، وإلى دمجها في نظام كونيّ يجعل من الفناء الجسديّ مجردَ مرحلة في رحلة لا تنتهي. وهذا التصوّر، على اختلاف تفاصيله بين الأديان، ظلّ أكثر قدرة على استيعاب قلق الإنسان، وأكثر تأثيراً في تشكيل رؤيته لنفسه ولمصيره.

ففي الأديان السماوية (اليهودية والنصرانية والإسلامية)، يُنظر إلى الموت على أنّه لحظة الفصل بين عالمين؛ حيث تنتقل الروح من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، من الحياة المؤقتة إلى الحياة الدائمة. تمنح هذه الرؤية الموت بُعداً خُلقيّاً؛ إذ يصبح البوابة التي تُستعاد عندها العدالة المطلقة، فيحاسب الظالم، ويثاب المحسن، ويُعطى كل إنسان حقه.

وعلى الرغم من الاختلاف الجذري بين رؤية بعض الأديان الشرقية القديمة للموت وبين الرؤية السماوية له، فإن القاسم المشترك بينها هو أن الموت جزء من نظام خُلقيّ مُحكم.

في حين عجزت الفلسفة الغربية عن تقديم إجابة نهائية للموت - وإن اشتغل العلم الحديث على تأجيله دون إلغائه-، قدّمت الأديانُ رؤيةً تمنح الموت معنى، وتجعل منه امتداداً للحياة لا نهايتها. هذه الرؤية كانت أكثر قدرة على تهدئة قلق الإنسان؛ لأنّها لم تكتفِ بوصف الموت، بل قدّمت إجابة عن سببه وغاياته وما بعده.

في النهاية، يبدو أن سؤال الموت يتعلق بالحياة نفسها. فإذا كان الموت مجرد انقطاع بلا معنى، فإنّ الحياة ذاتها تفقد قيمتها، أما إذا كان الموت عبوراً إلى مستوى أوسع من الوجود، فإنّ الحياة تصبح ذات مغزى أعمق، ويتحوّل الخوف من الموت إلى استعداد له. ومن هنا، تأتي الرؤية الإسلامية للموت، التي تضعه في سياق الغاية الكبرى للخلق؛ حيث يكون لكل حياة امتداد، ولكل فعل حساب، ولكل إنسان موعد مع الحقيقة التي لا يفرّ منها أحد.

الرؤية الإسلامية للموت كتحرير من العبث

في قلب المعضلة الفلسفية حول الموت، يبرز سؤال محوري: ماذا يحدث للوعي بعد الموت؟ هل ينتهي كما ينتهي الجسد، أم أنّه يستمرّ في شكل آخر؟ انطلقت الفلسفة المادية، التي سيطرت على الفكر الغربي الحديث، من فرضية أن الوعي مجرد وظيفة دماغية، فإذا توقف الدماغ، انتهى الوعي تماماً. لكن هذا الافتراض ليس سوى انعكاس

لمنظور مادي ضيق؛ حيث يُنظر إلى العقل باعتباره آلة، وإلى الحياة بوصفها تجربة حسية تنتهي بالفناء.

في المقابل، يقدم القرآن تصوّرًا مختلفًا تمامًا؛ حيث لا يكون الموت نهاية للوعي، بل على العكس، هو نقطة انكشاف؛ حيث يصبح الوعي أكثر اتساعًا وإدراكًا مما كان عليه في الدنيا. وهذا ما تعبّر عنه هذه الآية: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]؛ حيث يؤدي الموت إلى إزالة الحجب التي كانت تحدّ من إدراك الإنسان في الحياة الدنيا. إذًا، الموت هو عبور إلى وعي أكثر حدّة وأكثر حضورًا؛ حيث يرى الإنسان الحقيقة التي كانت مستترة خلف ستار المادة.

ويؤكد القرآن هذه الفكرة من خلال وصف الحياة الآخرة بأنها "الحياة الحقيقية"؛ حيث يقول الله - تعالى -: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. يقدم النص القرآني هنا تصوّرًا جذريًا مختلفًا عن التصوّر المادي: إنّ الحياة التي نعيشها الآن ليست الحياة الحقيقية، بل هي مجرد ظلّ، وتجربة لم تكتمل، بينما الحياة الحقيقية هي تلك التي تبدأ بعد الموت؛ حيث يكون الإدراك أكثر صفاءً، والوعي أكثر اتساعًا.

إذا كان الفلاسفة قد جعلوا الموت مصدر قلق وجودي، وإذا كان العلم قد حاول مقاومته دون تجاوزه، فإنّ الرؤية القرآنية تحوّل الموت إلى لحظة انكشاف؛ حيث يدرك الإنسان لأول مرة الحقيقة المطلقة التي غابت عنه في الدنيا.

فإذا كان السؤال الغربي حول الموت هو: "ماذا بعد الفناء؟" فإنّ السؤال الإسلامي يتخذ منحى آخر تمامًا: "كيف نستعدّ للحياة الحقيقية؟" والفرق بين السؤالين هو ما يحدّد الفرق بين القلق الوجودي والإيمان العميق.

بناء على كلّ ما تقدّم، جاء هذا العدد من مجلّة (اعتقاد)، ليُعالج قضية الموت، ويُجيب عن مجموعة من الأسئلة والإشكالات التي طرّحت عليه، وفي هذا السياق أتت مقالة "الموت عند الفلاسفة الماديين"، لتبيان وجهة نظر الاتجاه الطبيعي والمادي في الفلاسفة الغربية منذ عصر الإغريق حتى عصرنا الحالي؛ حيث عرض الكاتب آراء أبرز أعلام الفلاسفة في مختلف الحقبات التاريخية ونظرتهم إلى الموت والفناء، ثمّ فنّد مذهبهم الذي يُنكر الحياة بعد الموت أو يؤوّل معنى الخلود على خلاف ما جاءت به الأديان السماوية.

وفي جانب آخر تناولت مقالة "الموت الدماغي ونقل الأعضاء والخلود البيوتكنولوجي-دراسة كلامية تأصيلية-" محاولة بعض العلماء ومهندسي الحاسوب تفسير الوعي بطريقة تختزله بعمليات بيولوجية وعصبية داخل دماغ الإنسان، وإمكانية محاكاة الوعي البشري ونقله عبر أنظمة حاسوبية معقدة؛ كي يتسنى للإنسان تجربة الخلود بعد موت بدنه. وفي نهاية المقالة، نقد الكاتب هذه الرؤية الاختزالية للوعي البشري وتصحيح مفهوم الخلود والأبدية وعدم إمكانية استنساخ وعي بشري مع الحفاظ على وحدة الشخصية الواعية.

ثم جاءت مقالة "حُرْمَةُ الْإِنْتِحَارِ عَلَى ضَوْءِ فَلْسَفَةِ الْفِعْلِ الْإِخْتِيَارِيِّ"، لتناقش فلسفة حرمة الانتحار ورؤية الدين الإسلامي لمعنى الحياة، ومسؤولية الإنسان فيها، والهدف من خلقه ووجوده في الحياة الدنيا، وأنه يمتلك مسؤولية أفعاله كلها تحت أي ظرف أو مشكلة يعاني منها، وأنه لا بد للإنسان من تحمّل مشاق الحياة وابتلاءاتها على ضوء رؤية كونية إسلامية هادفة تنجيه من الغرق في العبثية والعدمية.

وفي مقام بيان معنى آخر للموت، وهو الموت الاختياري الدنيوي، تصدّت مقالة "الموت الاختياري- رحلة العبور نحو الحقيقة-"، لمحاولة تفسير رؤية بعض مذاهب علم الأخلاق الإسلامي لكيفية تجرّد الإنسان عن التعلّقات الدنيوية وتحقيق الموت المعنوي والقلبي عن عالم الظاهر والمحسوسات؛ بحيث تتجلّى فيه رؤية معرفية قلبية تنقله نحو عالم الحقيقة والمعنى.

وفي سياق إثبات عالم المثال المنفصل قام كاتب مقالة "شَرْحُ تَجَارِبِ الْإِقْتِرَابِ مِنَ الْمَوْتِ.. اسْتِنَادًا إِلَى نَظَرِيَّةِ عَالَمِ الْمَثَالِ (لِلسَّهْرَوَرْدِيِّ)" في تفسير تجارب الاقتراب من الموت لدى من مرّوا بها، على ضوء وجود عالم مثال منفصل عن الدنيا ويكون في باطنها وحقيقتها في الوقت عينه، وأنّ الذين اقتربوا من الموت هم في حقيقة الأمر والواقع دخلوا إلى ذلك العالم الذي يميّز باشتداد الإدراك والوعي والإحاطة بما لا تسع له الحواسّ الظاهرة.

ختامًا، نأمل أن ينال هذا العدد إعجاب القراء، وأن يُقدّم الفائدة المرجوة بإذن الله تعالى، وأن يساهم في رفد الساحة العلمية والثقافية بأدوات النقد والتحليل لمواجهة التيارات الفكرية الأخرى. والحمد لله أولاً وآخراً.

